القصص الديني

الحلقة الثانية

قصص السيرة

حليمة السعدية

٥

عبد الحميد جودة السحار

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ فقدْ لبِثْتُ فيكم عُمرًا من قَبلِه ، أَفلا تعْقِلون ﴾ .

(قرآن كريم)

وضعَتْ آمنةُ ثديَها فى فَم ابْنِها ، فى اليوم الثانِى لموْلِده ، فلم تجدْ فيه لَبَنا ؛ فقد جَفَّ لبنُها ، لِمَا أصابَها من حُزْنٍ لموتِ زوْجِها . وكان الحرُّ شديدا فى مكة ، فَخَشِيتْ آمِنَةُ أن يُؤَثّر هذَا الحرُّ فى ابنِها ، فراحت تبحثُ عن مرْضعٍ تُرْضِعُه ، حتى تأتِيَ المراضِعُ من البادِيَة ، فتُعطيَهُ مُرْضِعا منهُن ، تأخذه معها بعيدًا عن حرِّ مكّةَ الشديد .

ووجدت آمنةُ أنَّ ثُوَيْبَةَ جارِيةَ عمِّه أبى لهبٍ تُرْضع ابْنَها ، فأعطَتْها مُحَمَّدًا لتُرضِعَه ، فأخذَتْهُ ثُوَيْبَة ، وأرضعَتْهُ ثلاثةَ أيام ، وبعدها علِمتْ آمنةُ أن المراضعَ جئن من البادِيةِ إلى مكة ، يلتمسنْ الأطفال ، فطلَبتْ من جَدِّه عبد المطلب ، أن يَخرُج ، ليبحثَ له عن مُرْضع .

٢

لم ينزلِ المطرُ فى هذه السنة ، فلم تنبُتِ المراعى فى هَوازن . وهى قَبيلةٌ من قبائل العرب ، فكانت سنةً شديدةً على الناس ، حتى إن عشرًا من نساءِ بنى سعد ، من هوازن ، خرجْنَ إلى مكةَ يطلُبْن الرُّضعاءَ ، وكانت من بينِهن حليمةُ بنتُ أبى ذُؤَيب ، وخرج معَها زوجُها الحارِثُ بنُ عبدِ العُزَّى ، وكانت تحمل ابنَها عبدَ اللّه ، وترضعُه .

ركِبَت حليمةُ حِمارَها الأبيض ، ومعها ناقةٌ مُسنة ، ليس فى ضَرْعها قَطْرةُ لَبَن . وسار الرِّجالُ والنِّسوةُ فى طريقِهم إلى مكة ، حتى إذا جاءَ الليلُ ناموا فى خَيْمة ، وما كانت حليمةُ وزوجُها ينامان من بكاءِ ابنِهما . كان يَبْكى من الجُوع ، فما كان فى ثَدْى حليمةَ لبن ،

ولـولا الشِّـدةُ التى كـانت فيهـا مـا خرجَـتْ تطلـبُ رُضَعاء. كانت تَطْمَعُ فى أنْ تأخُذ ابـنَ غنـىٍّ يدفـعُ لهـا مالاً كثيرا يساعِدُها على العَيْش .

وفى الصباح ، استأنفُوا السيرَ إلى مكة ، وقد تأخَّرُوا عن الوصـولِ إليهـا ؛ لأن حمـارَ حليمـةَ كـان ضَعيفـا هزيلا ، فكانُوا يُضْطَرُّون إلى انتظارِها .

وأخيرًا وصلُـوا إلى مكّـة ونزَلُـوا بهـا ، وانتظَـرُوا أن يأتِىَ منْ يَطْلُبُ المرَاضع . وكانت كلُّ مُرْضِع ترجُو أن تعُودَ ومَعها طفلٌ من أَبناء الأغْنِياء .

٣

خرجَ عبدُ المطَّلبِ إلى المراضع ، يَعرضُ عليْهن حفيدَهُ مُحمَّدا ، فراحَ يدُور عليْهن ويقول :

ـ يا هذهِ ، إن عندِى غلاما يَتيما ، أتأخُذِينه ؟ فتقول المُرْضِع وهى تُعْرِضُ عنه :

ـ ما عند اليتيمِ منَ الخَيْر ؟ ! إنّا نلتمسُ الكرامةَ من الآباء .

واستمرَّ عبدُ المطلب يَعرضُ على المراضِعِ أخذَ محمَّد ، ولكنَّهُن رفَضْنَ أن يأخُذْنَه ، لأنَّه يتيم ، ليس لهُ أبٌ تُلْتَمَسُ الأموالُ منه .

وأخذَتْ كلُّ مرْضع طِفلا ، وعبدُ المطَّلب يعْرِضُ حفيدَه عَليْهن فيقُلْن له :

ـ يتيم ؟ ! ما عَسى أن تَصْنَعَ أمُّه وجدُّه !

كرِهتْهُ المراضعُ لذلك ، وما بقيتِ امرأةٌ إلا أخذتْ رضِيعًا غيرَ حليمة ، وأجمعت النِّسْوَةُ على الرُّجوعِ إلى ديارهن ، فالتفتت حليمةُ إلى زوْجِها الحارث ، وقالت :

ـ واللّه إنِى لأكرهُ أن أرجِعَ من بينِ صَواحبى ولم آخذْ رَضِيعا .

ورآها عبدُ المطَّلب تنتظِر ، فذهب إليها ، وقال :

ـ من أنت ؟

فقالت حليمة :

ـ أَنا امرأةٌ من بنى سَعْد .

ـ ما اسْمُك ؟

ـ حليمة .

فتبسَّم عبدُ المطلب وقال :

ـ سعدٌ وحِلم ! خَصْلتان فيهما خيرُ الدَّهر ، وعزُّ الأبَد . يا حَليمة ، إنَّ عندى غلامًا يتيمًا ، وقد عرضْتُهُ على نساءِ بنى سعد ، فأبيْنَ أن يقْبَلْنهُ ، وقُلن : ما عندَ

اليتيمِ مِن الخير ! فهل لك أن تُرضعيه ، فعَسى أن تسعَدِى به ؟

فقالت له حليمة :

ــ انتظرنى حتى أشاورَ زوجى .

وشاورَتْ زوجَها ، فقال لها : خُذيه .

فرَجَعت إلى عبدِ المطلب وقالت :

ــ أينَ الصبىّ ؟

فرِح عبدُ المطلب ، لأنّه وجدَ مُرضِعا لمحمّد ، وقال لها :

ــ تعالَىْ .

وأخَذها إلى بيتِ آمنة ، فقابلتْها آمنةُ مرحِّبة ، وأدْخَلتها إلى حيثُ ينام محمد . نظرتْ إليه حليمة ، فوجدَتْه ملفوفًا فى ثوبٍ من الصوفِ الأبيض ، وتحتَه حريرةٌ خضراء ، راقِدًا على قفاه ، فأشْفَقت أن توقِظَه من نَومه ، لِحُسْنِه وجماله ، فوضعتْ يدَها على صدره ،

فتبسَّم ضاحكا ، وفتَّح عينَيْه ، فأحسّت حليمة انجذابا إليه ؛ أحبَّتْه لَمّا رأتْه ، فمالت عليه ، وقبَّلَتْهُ بين عينيه ، ثم مالت وحَملَته ، وخرجت به إلى صواحبها .

٤

وضَعَتْهُ حليمةُ فى حِجْرِها ، ووضَعتْ ثديَها فى فَمه ، فإذا بِثَدْيها قد امتلأ لبنا ، فأرْضَعَته وهى تَعْجَب ، وأرضعت ابنَها عبدَ اللّه حتى ارْتَوى ، ولما جاءَ الليلُ نامُوا مِلْءَ الجفون ، وما كانُوا ينامُون من صِيَاح عبدِ اللّه ، الذى كان يَبْكى من الجوع .

وفى الصّبَاح قامَ الحارثُ زوجُ حليمةَ إلى الناقةِ المسنّة ، فحلب منها ما شرب ، وما قدَّمه لحليمةَ حتى شبِعَت ، فقال الحارثُ لزوجته :

ــ تعلّمِى ياحليمـة ، لقـد أخـذتِ نَسـمةً مباركـة .

فقالت له حليمة :

ــ واللّه إنى لأَرْجُو ذلك .

واستعدَّ القومُ للعودةِ إلى بنى سعد ، فركِبتْ حليمـةُ حمارَها الهزيل ، وحَمَلت محمَّدا معها وإذا بالحمارِ يجرى حتى يسْبِقَ الرَّكْب ، فنظر صواحبُها إليها فى عَجَب .

ــ يا حليمة ، أليسَ هذا حمارَك الذى خرجْت عليه؟

ــ إنه هُو .

٥

ترعْرَع محمدٌ فى بنى سعْد ، حتى إذا بلغَ سنتيْن ، خرجت به حليمةُ إلى أُمّه وهى حزينَة ، أحبَّتْه حبًّا شديدا ، حتى كان يُحزِنُها أن تفارِقَه .

وضمّتْ آمنةُ ابنَها إليها فى حُب ، وقبَّلتْه ، وأرادت أن تبقِيَه إلى جوارِها ، وأحسَّت حليمةُ ألما لفراقه ، فقالت لآمنة :

ـ دعِينا نرْجِعْ به هذه السنةَ الأخرى ، فإنى أخْشى عليه وَباءَ مكة .

وظلت حليمة تتوسل إليها أن تردَّه معها سنةً أخرى ، حتى قبلت آمنة ، ففرِحَتْ حليمةُ وأخَذَتْهُ مسرورة ، فقد كانت تحرِص على أن يمْكُثَ فيهم .

وعادت به إلى دارِها ، فكان يخرجُ ينظُر إلى الصّبيان يلعبون فَيَجْتَنِبهُم ، ويَبحثُ بعينَيْهِ عن أولادِ حليمةَ فلا يجدُهم . فذهبَ إليها يومًا وقال :

ـ ما لى لا أرَى إخْوتى بالنهار ؟

فقالت به :

ـ فَدَتْكَ نَفْسِى ، إنَّهم يرْعَوْن غَنَمًا لنا .

ـ ابعَثِينى معهم .

وخرج محمدٌ يرعى الغنم ، وكان يخرجُ مسرورا ، ويعودُ مسرورا ، ينظُر إلى السَّماءِ وإلى الفَضاء . وفى ذاتِ يومٍ خطر له أن يصْعدَ فى الجبل ، فراح يرتَقِيه ، ورآه ابنُ حليمةَ وهو يَصْعد ، فجرى إلى أُمّه يخبرُها ، فراحت حليمةُ وزوجُها الحارثُ يَعْدُون ، حتى إذا بلغَاه وجدَاه جالسًا على قِمّةِ الجبل ينظُر إلى السماء ، كان على رَغْمِ صغرِه مشغولاً بالكون يُقَلِّبُ

بصرَه فيه .

فحملته حليمة ، وقبَّلَتْه بين عينيه ، وأخذت تَهْبِطُ به ، دونَ أن يَخْطُرَ على بالِهَا أنّه قد ارتبطَت الأسبابُ بينَه وبين السماء .

٦

وأقيمَ سوقُ عُكاظ ، وكان العربُ يجْتَمِعُون فيها ، يَذْكرُون مفاخِرَهم . وكان المنجِّمُون يَكثُرون فى هذه السوق ، والناسُ يَعرِضُون صبْيانَهم عليهم . ورأت حليمةُ أن تذهبَ إلى هذه السوق ، فلما بلغتها قدَّمت مُحمدا إلى العراف (المنجِّم) ، فنظر العرّافُ إليه وصاحَ :

ـ يا معشرَ العرب ، يا معشرَ العرب .

فاجتمع الناسُ إليه ، فصاح :

ـ اقْتلوا هذا الصَّبىّ .

والتفتَ فلم يجدِ الصبىّ ، وكانت حليمةُ قد فرّت بمحمَّد ، فصاح الناس :

ـ أىَّ صَبىّ ؟

فيقولُ العراف :

ـ رأيتُ غلاما ، والآلهــةِ ليقتلــنَّ أهــلَ دينكــم ، وليُكَسِّرَنَّ آلِهَتكم ، وليَظْهَرَنَّ أمرُه عليكم .

٧

أصبح عُمْـرُ محمـدٍ ستَّ سنوات ، فأخذَتْـه حليمـةُ لتعيدَه إلى أمِّه ، ولما لاحتْ لها مكة ، التفَتتْ إليه ، فلم تجده ، فراحتْ تبحثُ عنه ، فلما لم تجدْه قَلِقَــت ، وذهبَت إلى جدِّه عبد المطلب ، وقالت له :

ـ إنى قَدِمْتُ بمحمدٍ هذهِ الليلة ، فلما كنتُ بأعـالِى مكةَ أضلَّنى ، فواللّه ما أدْرِى أين هو ؟

وكان رجلانِ من قرَيْــش قـادِمَيْن إلى مكـة ، فوجـدا صبيًّـا صغيرا فى وادى تهامـة عنـد الشجرة ، يقلِّــبُ وجهَه فى الكون ، فقالا له :

ـ من أنت ؟

فقال فى ثبات :

- أنا محمدُ بنِ عبدِ اللّه بن عبدِ المطلب بنِ هاشم .

فاحتملاه ، وذهبا إلى عبد المطلب ، فلما رآه جَدُّهُ قام إليه يعانِقُه ، وفرحت حليمةُ به ، وأخذَتهُ إلى أمِّه ، فقالت لها آمنة :

- ما أَقدمَكِ به ، وكنتِ حريصة عليه ، وعلى مُكْثِه عندك ؟

فقالت حليمة :

- قد قَضَيْتُ الذى علىّ ، وتخوّفتُ عليه الأحداث فأدَّيْته إليك كما تحبّين .

وتركَتْهُ حليمةُ لأمه وانصرفت . ولن يَمْكُثَ محمدٌ مع أُمّه طويلا ، إن هى إلا أَشهرٌ قليلة ، حتّى تموتَ آمنةُ وتتركَه ، فقد كُتِبَ عليه أَن يَشِبَّ يتيما .